الحلقة الحادية عشر

فى قلاع المجد مع المجتهدين والمبدعين

(من علماء ، مفسرين ، ومحدِّثين وفقهاء ، ولغويين ، مروراً بتربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفين ، إلى أدباء وشعراء ورحّالة جغرافيين ومؤرخين ، حتى الأقليات والمستعمرين) .

الأندلس ، الوجه المشرق فى الحضارة الإسلامية بقلاع مجده مع المجتهدين والمبدعين ، كما هو شأنه مع الأبطال المجاهدين ، فيض جمع بين المفسرين والمحدِّثين والفقهاء واللغويين والتربويين ، والأطباء والرياضيين والفلكيين ، والفلاسفة والمتصوفين ، والأدباء والشعراء ، والرحالة جغرافيين ومؤرخين ، كما تقبل فى ربوع حريته ورحابة صدره اليهود باحثين عن ذاتيتهم ومجتهدين فى عقيدتهم ، دونما قهر أو ترهيب ، كما عانى المستعربون بعد ضياع الأندلس من هذا القهر ومحاكمه التى لن تقف عند مصادرة الأرض ، وإنما تجاوزتها إلى محو وإلغاء الإنسان ، ولمزيد من التوسع والتفصيل فى هذا المضمار يراجع من بين العديد من المؤلفات التى استنرنا بعطاءها ، وما أكثرها ، الكتاب القيم لانجل جنثالث بالنثيا المنشور عام ١٩٢ .

(A .Gonzáles Palencia " Histoira de la literatura arabigo Espanola" .

(وتُرجِم إلى العربية تحت عنوان « تاريخ الفكر الأندلسى » ، نقله حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية – ١٩٥٥) .

وهكذا وباختصار نخص ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، من المفسرين وقرّاء القرآن والمحدِّثين : الدانى وابن فيرة الشاطبى وبقى بن مخلد وغيرهم ، ومن المحدِّثين ابن عبد البر ، كما كان من الأوائل محمد بن وضاح بن بديع وقاسم بن أصبغ بن ناصع بن عطاء ومحمد بن عبد الملك بن أيمن صاحب كتاب السُنَن ،

بل ويُعتبر ابن القوطية من كبار المحدِّثين فى الأندلس ، فضلاً عن ابن الحجاج وابن الفردى وعبد الحق الإشبيلى صاحب الأحكام وآخرين ... وآخرين ممن لا يتسع المقام لتحريهم فرداً فرداً ، وكلهم يستحقون منا كل إعزاز وتقدير .

وموكب الفقهاء بدوره حافل متكامل مع المفسرين والمحدِّثين ، من أكابر الفقهاء المالكية : أبو الوليد الباجى وأبوالوليد بن رشد - ولنا معه عودة كفيلسوف فى الصفحات التالية - والسهيلى الفقيه المالكى دفين مراكش وابن عاصم ، وهذا الذى يعزى إليه دخول المذهب الشافعى إلى الأندلس قاسم بن محمد بن سيار من أهل قرطبة ، يشاركه فى شافعيته بقى بن مخلد المفسر القارىء وخلق بن عبد الله بن مخارق الخولانى ، ونذكر أيضاً يوسف بن محمد بن سليمان الهمدانى وعبد السلام بن السمح بن نابل بن عبد الله بن يحيون الهوارى ، ولِمَ لا ؟ ابن حزم القرطبى الذى كان شافعياً فى فترة من حياته قبل ظاهريته وهو يُعَد من ناشرى مبادئها ، لقد كان فتح الأندلس فتحاً حضارياً وليس غزواً عسكرياً كما يزعم البعض ، فالمذهب الظاهرى مع محمد بن قاسم بن هلال الذى تتلمذ على داود الأصفهانى منشئاً للمذهب الظاهرى وناسخاً لكتبه بخطه ، ومن أوائل الظاهريين أيضاً منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطى ، ولا شك أن ابن حزم يتصدر بشهرته لما قدَّم من العديد كمؤلفات فى مختلف ضروب المعرفة ، كأمثلة كتاب « المحلى فى الخلاف العالى » ، وكتاب « الفصل فى الأهواء والنحل » ، وهو من أهم كتبه ، وقد حاول ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة سابقاً فى ذلك ابن رشد بقرن من الزمان ، وكتب رسالات كثيرة ، بل تنوَّع فى إنتاجه فله فى التاريخ « جمهرة أنساب العرب » وله « الإمامة والخلافة » و « نقط العروس » ورسالة « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » وعرَّف بها المقرى فى نفح الطيب ، ويُذكر له من أعماله الأدبية « طوق الحمامة فى الألفة والإلاف » ، وكانت له آثار ومدرسة حزمية من ممثليها صاعد الطليطلى .

وهكذا تكامل الفقهاء مع المفسرين والمحدِّثين ، ومنهم مَن برز فى الفلسفة وأشرق أيضاً ، كالوليد بن رشد وابن حزم ، وانتشر المذهب كما انتشر المذهب الشافعى والظاهرى ، وكان أيضاً التكامل مع اللُّغويين ممن برزوا فى ميدان الثقافة بصفة عامة ، فاللُّغة العربية عبر الآلاف من كلماتها استقرت فى اللُّغة الأسبانية حتى الآن ، بل تبنَّى المعجم الرسمى للأكاديمية الأسبانية العديد من الكلمات العربية ، وحتى مجال الرتب والمجال البحرى والفلاحى والزراعى نلمس فيه حضور الكلمات العربية .

لقد انتشرت العربية ولم يمر على فتح الأندلس أكثر من ربع قرن ، ويعطى كمثال : رسول يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل ، وقد كان يجيد العربية ، وقد تمت الاستعانة بالنصارى المستعربين من الأسبان فى النقل إلى اللاتينية ، ويُذكر فى هذا المضمار أن باجيرارد الكريمونى وقد جاء من إيطاليا ، ونقل ما يزيد على سبعين كتاباً مستعيناً فى البداية بالمستعربين النصارى من الأسبان .

لقد غص الأندلس بمخطوطاته العربية إلى حد أن الكاردينال « سيسه يورس » فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى جمع المخطوطات العربية فى باب الرملة بغرناطة وأحرقها ، وكانت تقترب من المليون مخطوط لم يُبق منها إلا على مائة وخمسين مخطوطاً فقط فى الطب ، وقد عرفت اللُّغة العربية مَن اجتهد فيها وحرص على صفاء نحوها وقواعدها ، تذكر الزبيدى أثير الدين أبو حيان والأثرى الغرناطى الملَّقب بشيخ النحاة ، ويُلاحَظ فى ميدان اللُّغة من حيث الاستعمال أنه كانت هناك اللُّغة العربية الفصحى للمتأدبين والعلماء ، واللُّغة العربية الدارجة لغة الدواوين والإدارة المدنية ، واللُّغة اللاتينية وتستخدمها الكنيسة فى التراتيل الدينية والصلوات ، ولهجة رومانسية وأكثرها مشتق من اللاتينية الدارجة قُدِّر لها بعد أن تصبح اللُّغة القشتالية أو الأسبانية ، كما أن هناك كلمات دخلت كذلك اللُّغة البرتغالية .

وهكذا أشرقت اللُّغة العربية فى مختلف الميادين ، ولم يقف هذا الإشراق عند حد المفسرين والمحدِّثين والفقهاء واللُّغويين ، بل تجاوزهم إلى ميادين معرفية

أخرى تؤكد لنا أصالة لغتنا العملاقة وقُدرتها ، وأن ما يزعمه البعض آنياً من قصور فى توظيفها فى بعض العلوم ، فهذا قصور مردود إليهم ، لأنها مورست فى التربية كما مورست فى الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، واستأنس بها الفلاسفة والمتصوفة واستأنسوها ، فضلاً عن ميدانها المحورى الذى تنفرد فيه بين كل لغات العالَم بعطائها المتميِّز ، ونعنى به الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، فضلاً عن توظيفها السلس الجذّاب ، المبسط من قِبَلِ الرحّالة جغرافيين ومؤرخين ، لغة بهذا الحجم لا يمكن أن توصف إلا بالعملقة والجهبضة والعبرة بالمتكلم بها والمستأنس لها من حيث العظمة والانحطاط .

ففى التربية كُتِبَ العديد وبخاصة فى الأخلاقيات ، كمثال من بين أمثلة كثيرة : ما اقتُبِسَ من كتاب « سر الأسرار » وكتاب « الأمثال الطبية » لحنين بن إسحاق ، وكتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » لمؤلفه أبو حمو موسى ابن يوسف ... وغير ذلك من الكتب الأخلاقية فى التربية ، بينما فى الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، وكيف أن هذه التخصصات شهدت علماء تركوا بصماتهم وآثارهم ليس فقط فى لغتنا العربية ، وإنما فيما تُرجِمَ عنها كالزهراوى أبو القاسم (Abulcasis) وهو الذى ارتفع فى أعين معاصريهم إلى طبقة أبيقراط وجالينوس ، ويُعتبر من اوائل مَن جعل من الجراحة فناً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ومرتكزاً أساساً على لتشريح ، ونخص أيضاً ابن وافد الذى عُرِفَ عند اللاتينين (Eben guefitf) . كما نذكر من الأطباء يونس بن أحمد الحورانى ، ومن النباتيين حمدين بن أبان ، كما نذكر ابن حجاج القرطبى ولكنه قد وضع كتاباً فى الزراعة ، ومن الأطباء الذين اشتغلوا بالفلسفة أيضاً أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى وابن باجة وبنو زهر وابن العوام الإشبيلى وبخاصة أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقى ، صاحب كتاب « الأدوية المفردة عن العقاقير والأعشاب » .

ولم يقف العطاء فى الطب والرياضيات عند العرب ، بل هناك من اليهود كموسى بن ميمون واجتهاداته فى الطب ، وهو المعروف عند اللاتينيين

بـ « ميمونيدس » ، ونذكر أيضاً فى مضمار علماء النباتات ابن البيطار ، وفى الرياضيات والفلك أحمد بن نصر صاحب كتاب « المساحة المجهولة » ، ومسلمة المجريطى الذى اعتبر إقليدس الأندلس وهو صاحب كتاب « رسالة الإسطرلاب وثمار علم العدد » وتعديل الكواكب وغير ذلك ، وفى الفلك ابن برغوت ومحمد ابن عمر بن محمد ، وأبو إبراهيم بن يحيى النقاش الزرقالى القرطبى ، ومن الرياضيين والفلكيين أيضاً جابر بن أفلح الإشبيلى ، وينسب إليه اختراع علم الجبر بنسب تشابه اسمه واسم هذا العلم ، وقد ابتدع نظرية جديدة فى حركة النجوم ترجمها إلى العبرية موسى بن طيبون ونور الدين البطروجى المعروف لدى الغرب « البتراجيو Alpetragio » ، وأبو بكر بن أحسن الرقوطى الذى ترأس أول مدرسة إسلامية أنشأها ألفونسو العاشر فى مرسية ، واشتهر باجتهاداته فى الرياضيات والحساب ، وأيضاً ابن الشماط السرقسطى وغيره الكثير ممن اجتهدوا فى هذه الميادين ونُقلَت مؤلفاتهم إلى اللاتينية فى العصور الوسطى الأوروبية ، كما تشهد بذلك الآثار الكثيرة التى تزخر بها مكتبة الاسكوريال والمكتبة الوطنية بمدريد ، بل واهتمام الأسبان حالياً بذلك فضلاً عن اعترافهم بها بقدر اعترافهم بما قدّمته الأندلس المسلمة من عطاء وبلا حدود فى إطار الفلسفة والتصوف .

فمن المعروف أنه بعد افتقار العصر القوطى للتفكير الفلسفى وبعد إرهاصات الاعتزال ، كانت المدرسة الأفلاطونية الحديثة مع محمد بن عبد اللّه بن مسرة القرطبى (٢٦٩ - ٣١٨ هـ / ٨٨٣ - ٩٣١ م) ، اتجه إلى آراء المعتزلة وكتب الكثير ، نخص من كتاباته كتاب « التبصرة » ، وكتاب « الحروف » ، وتمحور مذهبه حول آراء امباذقليس بغض النظر عما طرح هذه الآراء ، لامباذقليس الحقيقى أو المزيف ، والربط بالأساطير والامتزاج بالغنوصية والتكامل مع أفكار فلون الاسكندرى وغيره .... ، فالذى يعنينا الإشارة إليه أنه كان لابن مسرة مدرسة ، كما كان لهذه المدرسة خصوم نذكر منهم قاضى قرطبة ونخص من بين مَن أخذ بآراء ابن مسرة محيى الدين بن عربى ، كما أخذ بها بعض مفكرى

اليهود ، وتطورت المدرسة الفلسفية واستعادت نشاطها مع المدرسة المشائية ، غير أننا قبل أن نشير إلى بعض ممثليها نعرِّف وبإيجاز بشخصية إلى جانب ما قدِّمت فى إطار الشريعة وعلوم الدين والتاريخ أشرقت بنشاطها الفلسفى ، ونعنى بذلك ابن حزم القرطبى (٣٨٣ - ٤٥٤ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣ م) ، إذ أنه ألَّف فى العديد من أصناف العلوم وفى المنطق ، كما أن له نقداً لأبى بكر الرازى ، ومن تواليفه نخص إلى جانب ما أشرنا إليه سلفاً فى عرضنا عنه بين فقهاء الأندلس « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » ، ونعود إلى المشائية بعد هذه اللمحة التكميلية لابن حزم .لنشير إلى ابن السيد البطليوسى (٤٤٤ - ٥٢١ هـ / ١٠٥٢ - ١١٢٧ م) ، وأبى الصلت أميه بن عبد العزيز الدانى (٤٥٩ - ٥٢٨ هـ / ١٠٦٧ - ١١٣٤ م) ، وابن باجة (متوفى ٥٢٢ أو ٥٣٢ هـ / ١١٢٨ أو ١١٣٨ م) ، وابن الطفيل (٥٠٦ - ٥٨١ هـ / ١١١٠ - ١١٨٥ م) ، وكما صنَّف فى الفلسفة صنَّف فى الطب أيضاً وله آراء فى الفلك ، ونخص من مؤلفاته رسالة « حى بن يقظان » ، ونصل إلى ابن رشد أبو الوليد محمد (٥٢٦ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م) وهو ابن رشد الحفيد تميزاً له عن جده الفقيه ، وهو بدوره كان يسمى أبا الوليد محمد بن رشد ، بدأ فيلسوفنا الشهير بعلوم الشرع كما مارس الطب أيضاً ، بل كتابه « الكليات فى الطب » عرف طريقه إلى الأوروبيين آنذاك تحت تسمية « كلجات » وله دراسات أخرى فى الطب ، ثم اهتم ابن رشد بكتب أرسطو وشروحها ، كما وضع مؤلفات فلسفية أخرى نخص منها « تهافت التهافت » ، وهو رد على كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، وله كتاب « المقدمات » فى الفلسفة ، كما كتب فى علوم العقائد كـ « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال » ، وكتاب بعنوان « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » ، وله فى الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » عن المذهب المالكى ، وفى الفلك يُذكر له ترجمة عبرية للمختصر الذى رضعه لكتاب المجسطى ، كما يُنسب إليه رسالة عن « حركة الفلك » . وكتاب آخر عن « استدارة فلك السماء والنجوم الثابتة » ، ومع هذا يتصدر ابن رشد كفيلسوف أولاً وقبل كل شىء ، وبخاصة

كشارح لأرسطو ومعلّق عليه ، فضلاً عما يعرضه من آراء خاصة فى سياق شروحه ، حاول ابن رشد التوفيق بين القول بحدوث العالَم وبين النظرية المشائية القائلة بقدمه ، إلى جانب آرائه الفلسفية المعروفة الأخرى كقوله بقدم المادة ووحدة العقل الإنسانى ، وغير ذلك من الأفكار النيِّرة ، وكان لابن رشد تلاميذ كابن طملوس أبا الحجاج يوسف بن محمد ، وكان طبيباً نابهاً ، وهو صاحب « المدخل إلى صناعة المنطق » ، إلى جانب أتباع وتلاميذ آخرين ، كما تأثر بمذهبه وبصورة حاسمة الفكر الأوروبى ، وترجم اليهود شروحه إلى العبرية ، كما وضعوا لها ملخصات وسارت إلى حد ما العماد الاكبر الذى بُنِىَ عليه العلم العبرى ، بدأ من القرن السادس عشر إلى جانب معاصره موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) ، ومحاولة الأخير التوفيق بدوره بين المشائية والعقيدة الموسوية فى « دلالة الحائرين » ، كما لا يمكن إنكار أثر ابن رشد على الحركة الاسكولاسنية النصرانية ، ولعبت مدرسة مترجمى طليطلة دوراً هاماً فى نقل الفلسفة العربية إلى أوروبا حيث أتم فيها ميخائيل الاسكتلندى ترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، كما ترجم أيضاً هرمان الألمانى ، ويميل بعض الباحثين فى هذه الفترة (كبلنثنا وقد أشرنا إلى كتابه سلفاً) إلى أن هذه الترجمة تمت على مرحلتين من العربية إلى عجمية الأندلس ، ومن هذه إلى اللاتينية ، كما نقلت آراء ابن رشد بفضل العديد من مريديه والمهتمين بفكره ، واعتمد - على سبيل المثال لا الحصر - القديس توماس الأكوينى على فيلسوفنا المستنير فى قضية هامة من قضايا اللاهوت لديهم ، وهى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وعرفت أفكار ابن رشد المعارضين أيضاً كما غصت بالمتحمسين .

إن ابن رشد معلمة أساسية تُذكر بمداد الفخر والاعتزاز بين معالِم قلاع المجد التى أشعت داخل الأندلس وحوله كما أشعت على الأوربيين وأشرقت ، وتركت من الآثار التى لا يمكن أن يتغافلها إلا جاهل أو جهول .

وفى سياق عرضنا نذكر أيضاً ابن العريف أبو العباس عطاء اللّه الصنهاجى (القرن الخامس والسادس الهجرى ، الحادى عشر والثانى عشر الميلادى) وكأنه صدى لمدرسة ابن مسرة وقد أشرنا إليها سلفاً ، وله كتاب « محاسن المجالس » وقد نحا بكتابه منحىً صوفياً ، الزهد فى كل شىء ما عدا اللّه ، بل الزهد فى منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلٰهية والكرامات ، ويرى أن المنن كلها تكون للعوام دون الخواص من الراغبين فى سلوك الطريق إلى اللّه .

والتصوف يقودنا إلى محيى الدين بن عربى حيث تتمثل الصورة الأوفى لما وصل إليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة المقلع من مدرسة ابن مسرة فى شخصية أبى بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ / ١١٦٤ - ١٢٤٠ م) وعُرِفَ بمحيى الدين وبالشيخ الأكبر وابن أفلاطون ، أقلع من دراسة الفقه على يد أحد تلامذة ابن حزم الظاهرى ، وقد تأثر كما يذكر بزوجته الصالحة الورعة مريم بنت محمد بن عبد الرحمن الباجى إلى جانب أُمه ، كما يذكر أنه أُصيب بمرض فلزم الفراش وتراءت له منامات عن العذاب فى جهنم ، إلى جانب عوامل متعددة دفعته إلى الزهد والتصوف ، مارس محاسبة النفس والاعتكاف إذ كان ينفرد بنفسه أياماً طويلة بين القبور ، وكانت تتراءى له منامات فضلاً عن تأثره بعجوز تسمى نونة القرطبية ، وقد لزمها خادماً ومريداً مشاهداً لممارساتها وتنبوءاتها (كما هو معروف فى المصادر الخاصة بسيرته) ، ثم مارس الجولان فى بلاد الإسلام راحلاً ومترحلاً ، هنا وهناك متجهاً إلى المشرق ، ويُحكى عنه أنه تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء ... وفُسِّرَ له هذا المنام على أنه فتح من اللّه فى العلوم العلوية وعلوم الأسرار ، كما أنه حينما جاور فى مكة تزوج ببنت إمام مقام إبراهيم وضع كتابه « ترجمان الأشواق » ، وكتاب « الحكمة الإلهامية » وهو رد على الفلاسفة ، واستقر فى النهاية بدمشق ومات فيها ، وفيها كتب « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » و « الديوان » ، ولقد ترك ابن عربى أثراً كبيراً بعد موته ، بل اعتبر قطباً فريداً من أقطاب التصوف ، وبقدر ما كان له من المريدين كانت التحفظات من قِبَلِ مَن رأوا فى فكره -

وبخاصة « الفتوحات المكية » مجالاً للمناقشة بين المريد والمتحفظ ، ولقد كان محيى الدين مكثراً فى التأليف وتناول العديد من ضروب الفقه والفلسفة والشرع والفلك ، ولقد انتشرت آراءه ليس فقط فى ديار الإسلام ، بل حتى فى أوروبا النصرانية ووصلت إلى دانتى وغيره .

وفى مجال التصوف يُذكر أيضاً ابن سبعين أبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين الأندلسى (٦١٤ - ٦٦٩ هـ / ١٢١٨ - ١٢٧٠ م) وكان يلقَّب بقطب الدين ، درس علوم القرآن والحديث والفلسفة ، وتلقى الصوفية على يد إسحاق بن دهاق ، وبدوره كان له مُريدين ومتحفظين ، وبخاصة من الفقهاء ممن رأوا فى ملابس تابعيه وسلوكاتهم وطريقة معاشاتهم مجافاة للمألوف والعُرف ، ولقد خرج ابن سبعين إلى الحج وجاور فى مكة وتوفى فيها ، وفى هذا الصدد قال ابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » : « سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يده وترك الدم يخرج حتى تصفى ومات وله من العمر خمس وخمسون سنة » ، يُذكر من بين كتبه « يد المعارف عقيدة المحقق » ... ، وكتاب « الدرج » ، وكتاب « الدُرَّة المضية والخافية الشمسية » ورسائل متنوعة ، وعُرِف عن ابن سبعين استعماله فى كتبه الألغاز والرمز بالحروف ، وله اصطلاحات ذات معانى رمزية بعيدة عن المألوف ، وكانت له شهرة كبرى بين معاصريه تجاوزت ديار الإسلام حتى وصلت إلى مسامع البابا وكونت روما ، كما ذكر ابن الخطيب بل لجأ إليه الامبراطور فردريك الثانى النورمانى ملك صقلية ليجيبه على بعض المسائل الفلسفية ، فأجابه ابن سبعين عليها بعد أن عزَّت الإجابة على الآخرين من العلماء .

ومن المتصوفة أيضاً الأندلسيين ابن عباد الرندى أبو عبد الله محمد (٧٣٣ - ٧٩١ هـ / ١٣٣٠ - ١٣٨٩ م) ، وكان فقيهاً وخطيباً بليغاً وبخاصة متصوفاً ، صرف حياته كلها فى الزهد وقد وُصِفَ بالولى العارف ، وكان ابن عباد صوفياً على الطريقة الشاذلية ، ومن أهم كتبه « شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى » .

وهكذا قدَّم لنا الأندلس صفوة من المتصوفين ممن تركوا بصماتهم واضحة فى ساحة الصفاء والشفافية ، كما قدَّم لنا فلاسفة وعقولاً معطاءة نفخر بها لا فيما يعنى عصرها ولكن على ممر العصور ، هذا الأندلس بقلاع مجده العامرة بالمجتهدين والمبدعين زخرت ساحته بشعراء وأدباء ، كما زخرت بالرحَّالة جغرافيين ومؤرخين .

فالشعر فى الأندلس تعددت دروبه وإبداعاته من طلائع شعراء عصر الإمارة مع زرياب وابتكاراته ويحيى بن الحكم البكرى ، وكانوا يلقبونه بالغزال لجماله ، وقد بُعِثَ فى عدة سفارات ووفق فيها من قِبَلِ عبد الرحمن الأوسط ، وله « أرجوزة فى فتح الأندلس » ، ونُذكر أيضاً تمام بن عامر بن عقلمة وله أيضاً « أرجوزة مشهورة فى فتح الأندلس » ، وسعيد بن جودى وشعراء البلاط ، واستمر الشعر فى عطاءه عبر عصر الخلافة مع ابن عبد ربه ومنذر بن سعيد البلوطى وبخاصة ابن هانىء والزبيدى وصاعد البغدادى والرمادى والوزير أبو المغيرة ابن حزم وابنه من بعده ، له أيضاً عطاء شعرى ونعنى به أبو محمد بن حزم القرطبى ، ونذكر أيضاً ابن أبى زمنين وابن الهندى والفرضى وحبيب الصقلى وغيرهم ، وقد كان للشعر خصائصه المتميزة فى عصر الطوائف ، فقد كان عصراً ، رغم ما فيه من أحداث سياسية ، مثمراً للشعر والشعراء ، فقد نافس ملوك الطوائف فى جذب الشعراء إلى نواحيهم إذ كان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها فى مَنِّه وعطاءه أو رغبته وميله لاجتذاب الشعراء ، مما كان له انعكاس واسع على الحياة الشعرية بصفة عامة ، فهذا أبو الوليد بن زيدون بقرطبة ، ولا يُذكر دون أن تُذكر ولادته وهجاءه لابن عبدوس وماتم من مبارزة فى هذا المضمار ، ولِمَ لا ؟ هذه إشبيلية المعتضد بن عباد والمعتمد وشعراء بلاطه كابن حمديس الصقلى ، وشعر المعتمد نفسه فى منفاه والذى لا يمكن إنكار ما فيه من قدرات وإبداع ، وبغرناطة نخص أبو الفتوح الجرجانى وأبو إسحاق الألبيرى ، وبالمرية المعتصم صاحب المرية ، وشعراء بلاطه ، وببلنسية ومرسية ابن وهبون وابن ليون والوقيشى هشام بن أحمد وابن عبدون ببطليوس وغيره ،

وابن باجة فى سرقسطة وابن خفاجة وابن الزقاق وما عرفته ساحة عصر المرابطين ، وأبو جعفر ابن سعيد وحفصة الركونية وحمدة بنت زياد ، وما عرفته ساحة عصر الموحدين ، فضلاً عما قدّمه هذا العصر من إبداعات جديرة بالإشارة مع ابن الأبار وبخاصة أبو البقاء الرندى وهو غنى عن التعريف ، ومملكة غرناطة بدورها مرة أخرى مع ابن الخطيب كشاعر وابن زمرك ، كما كان هناك الاتجاه الشعبى الدارج مع مقدم ابن معافى القبرى مبتكراً الموحشة ، وابن قزمان ومدرسته ، وعرفت شعراء شعبيين وعلى رأسهم الشسترى ، إنه الأندلس المبدع فى كل بحور الشعر ومعارجه من شعر الصفوة إلى الشعراء الشعبيين ، ومع شعراء القصور إلى شعراء الساحات والأسواق ، شعراء حتى من البسطاء عُمّال وزُرّاع فضلاً عن الفنانين والنساء ، شعراء تناولوا كل الموضوعات ترفيهية وعاطفية وطبيعية وكل دروب الشعر ، حماس ونسيب ، ومبدع وخمريات ، ووصف ورثاء .

وتصدّر الأدب أيضاً كقُدرة رفيعة من فنون الفكر العربى فى الأندلس ، ويكفى كمثال أن نذكر ابن عبد ربه وكتابه « العقد الفريد » ، وأبو على القالى وابن الجسور ، وأبو بكر الطرطوشى وكتابه « سراج الملوك » ، وابن أبى الخصال وابن الأفطس وابن المواعينى ويوسف بن الشيخ البلوى الملقى ، فضلاً عن المقلدين لمقامات الحريرى والمعلّقين عليها ...نهضة عارمة فى كل اتجاه غطت الأدب كما رأينا وأبدعت فى الشعر ، وأشرقت بإلهام الشعراء وحفلت بتيار القصص متغذياً بالعديد من المؤثرات ، على سبيل المثال لا الحصر : « كليلة ودمنة » و « السندباد » و « ألف ليلة وليلة » وقصص الفروسية . وقد كان كما هو معروف لهذا التيّار تأثيراً واسعاً فى الغرب نذكر « الدون خوان مانويل » و « تورميدا » وغير ذلك ، مما يؤكد عمق تأثير هذا النوع من الأدب وانعكاساته على الجزل بصفة عامة فى الأدب الأوروبى من فرنسا إلى إيطاليا والبرتغال ، مروراً بانجلترا وألمانيا وبخاصة فرنسا ...

ترك الأندلس من البصمات إبداعاً فى كل مجالات الفكر والمعرفة ، وهاهم فضلاً عمن ذكرنا رحالته جغرافيين ومؤرخين من الوراق والبكرى وابن عبد المنعم الحميرى وأبو حامد الغرناطى والإدريسى المعروف بالشريف الإدريسى حفيد إدريس الثانى الحمودى أمير مالقة ، إلى ابن جبير إلى أبو عمر عبد الله رشيد ابن النشريسى وابن جابر من أهل واد آش ، والبلوى أبو البقاء من أهل قنتورية ، فضلاً عمن جالوا فى الأندلس كابن بطوطة ومعاصره ابن خلدون عابرين غرناطة وغيرهما ، ومن المؤرخين فى عصر الخلافة نذكر على سبيل المثال لا الحصر : عبد الملك بن حبيب وآل الرازى وابن القوطية وعريب بن سعد ، ومن عصر الطوائف أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ومحمد بن مزيد بن مسلمة وابن أبى الفياض ، وبخاصة ابن حزم القرطبى ، وقد كررنا الإشارة إليه سلفاً ، وفى عصر المرابطين والموحدين : ابن صاحب الصلاة وأبو مروان الباجى وابن سعيد وعبد الواحد المراكشى ، ومن مملكة غرناطة ابن الخطيب ، وقد أشرنا إليه سلفاً كشاعر ، إلى جانب أصحاب التراجم وفهارس الكتب كابن الفردى والحجارى وابن بشكال وابن الأبار ، وقد أشرنا إليه سلفاً بدوره ، وابن خير وأصحاب التراجم الخاصة كابن ديحة ، ومن مؤرخى الأدب على بن بسام الشنترينى وابن خاقان الشقندى والمقرى ، إلى جانب مؤرخى النواحى كابن خاتمة وإسحاق بن مسلمة القينى وابن علقمة ... وغيرهم الكثير ، إن كنا قد أشرنا إلى هذه المعالم فى قلاع المجد كرحالة وجغرافيين ومؤرخين بعد إشراقة الشعراء والأدباء ، مختتمين جولتنا حول ما قدّمه الأندلس من مجتهدين ومبدعين ، فلا يعنى هذا بالضرورة أن ساحة الأندلس انفردت بمن يمثلها أصالة وانتماءً بإسلامه ، وإنما فتحت لغير المسلمين من القاطنين فى رباها وفيافيها ممراتها المشرقة باسم حرية الفكر فى وقت كانت هذه الحرية تحترق فى ميادين وساحات أوروبا الوسيطة المظلمة ، تباد الأقليات ويُصادر الإنسان ، لاحظنا من المستعربين والأقليات - وبخاصة اليهود - مَن تمتع بكامل هذه الحرية ليفكر ويعبِّر ويكتب ، فها هى إشارات « البور القرطبى » و « القس بنجنسيس » و « ربيع بن زيد الأسقف » ، بل كان الكثير من المستعربين يفضلـــون استعمال لغة العرب

وأسماءهم وأزياءهم إذ يُذكر « للبور القرطبى » (كما جاء عند بالنثا « تاريخ الفكر الأندلسى - الترجمة ص ٤٨٥ - ٤٨٦) قوله : « إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقدوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً .... ياللحسرة ، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ... فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك بازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، يا للألم . لقد نسى النصارى حتى لغتهم .... » .

هذا ، ولم تقف رياح الحرية ورحابة الصدر والتفتح عند حد المستعربين من النصارى ، بل ها هم وبخاصة اليهود يتمتعون تحت رايتها بكل عطاء للدراسات العبرية والتى كانت أسبانيا خلال هذه العصور مركزاً هاماً من مراكزها ، بل انعكست إشعاعات الفكر العربى المسلم على ثقافة يهود أسبانيا وتغذوا من مواردها بصورة مباشرة ، فبعثت الدارسات التلمودية فى قرطبة مع « ابن شربوط » ، الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر بعد أن بسط يد المساعدة والعون لموسى بن حنوك ومدرسته ، فأفرزت أعلاماً فى الأدب العربى مثل « منحايم الطرطوشى » و « ابن لبراط » وكانا متأثرين بالأدب العربى وتمثلوا صوره ، كما نذكر أيضاً اليهودى « إسماعيل صموئيل بن النغدلة » بغرناطة الذى كان يؤلف بالعبرية واجتهد فى النهوض بالدراسات التلمودية ، كما ألّف يهودا بن داود بدوره أول نحو علمى باللُّغة العبرية وهو الذى يسميه بعض كُتّاب اليهود فيمن كتبوا بالعربية أبا زكريا بن داود حيوج ، وألّف ابن جناح - الذى عُرِفَ بين المسلمين بأبى الوليد مروان بن جناح ، وعُرِفَ عند النصارى بيونا (يونس) - فى علم النحو باللُّغة العبرية ما سمى بـ « جمل النحو العبرانى » لديهم .

وفى إطار الفلسفة ومَن تأثروا بالكتب العربية يُذكر « سلموم بن يهودا بن جبرول » ، والذى سمى لدى المسلمين أبا أيوب سليمان بن يحيى ، وعُرِفَ عند النصارى بـ « أفيسبرون - AVicebron » ، وقد تأثر فى تأليفه بمذهب ابن مسرة ، وهو يتصدر بين شعراء اليهود فى العصور الوسطى . ويحيى بن يوسف بن فاقوزة المعاصر لابن جبرول السابق ، وقد تأثر بآراء الغزالى فى الأخلاق والتصوف وقد سماه الناس بـ « توماس ديكامبيس » اليهودى .

ونشير أيضاً إلى أبى عمر يوسف بن صديق وكان قاضى اليهود فى قرطبة ، وكتب فى المنطق بالعربية ، وتُرجم إلى العبرية ، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا ، كما نشير إلى موسى بن عذرى وهو من أهل غرناطة ويهودا بن ليفى الطليطلى ، أو يهودا هليفى ، وإبراهام بن داود الطليطلى ، الذى تأثر بمؤلفات الفارابى وابن سينا ، وقد حاول أن يوفق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة أرسطو . ومن اليهود أيضاً ممن انتفعوا بحرية الفكر تحت راية الإسلام : يهودا الجزيرى بن شلمون ، ومن الغريب أنه كان ساخطاً مع هذا التفضيل على أهل ملته للغة العبرية وقام بترجمة مقامات الحريرى إليها .

هكذا ومن خلال نماذج محدودة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، برز مفكرون وكُتّاب يهود ، شعراء وفلاسفة بل وتوزروا (أصبحوا وزراء) فى ظلال حرية الإسلام بالأندلس وما أمّنه من حقوق للإنسان المسلم وغير المسلم ، فعمرت قنوات الفكر اليهودى بالمجتهدين ، بل شهدت نهاية القرن الثانى عشر نشاطاً ملحوظاً لليهود فى التأليف والنقل من العربية إلى العبرية ، بل النهوض بحركة الترجمة من العبرية إلى العربية ، ولعل موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) خير مثال يُضرب فى هذا المضمار لنقف عنده قليلاً ونعرِّف به كصورة من أبرز صور التسامح الإسلامى مع غير المسلمين وبخاصة اليهود ، فبعد دراسته فى مدارس اليهود والعرب بقرطبة ألّف بالعربية كتابه المسمى « رسالة فى الرِّدة » ، وكتب كذلك بالعربية كتابه المسمى

« السراج » ، كما كتب « رسالة العزاء » ، وبلغتنا العربية العريقة وفى إطارها المتسامح وضع أيضاً كتابه « الفرائض » يدفع به ما وُجِّهَ من نقد إلى كتاب « تثنية التوارث » ، وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على ما كانت تتمتع به رحاب الأندلس من حرية حقة ، نكررها باعتزاز ونتساءل - فقط تساؤل - وفى مجال المقارنة حول ما يجرى باسم الحرية وتزييف البعض له فى القرن العشرين ، ويعتبر « دلالة الحائرين » من أشهر كتب ابن ميمون ، وقد كُتِبَ أصلاً بالعربية وتُرجم إلى العبرية واللاتينية ولغات أوروبية أخرى كثيرة ، وهو استخلاص لما فى اليهودية من لاهوت وفلسفة ، حاول فيه ابن ميمون أن يوفق بين العقل والدين كما فعل ابن حزم وابن رشد من قبله ، وكما سيحاول القديس توماس الأكوينى من بعده .

وأشرق أيضاً فى سماء الأندلس أدب المستعجمين ، ويُعتبر آخر صورة ظهر فيها الأدب الأندلسى الإسلامى مكتوباً بلغة أسبانية وبحروف عربية وعُرِفت فى المصطلح الأسبانى بـ « الخميادية » أى المستعجمية ، وهذه دلالة على معاناة الفكر بعد ضياع الأندلس لدى المستعجمين ، ضاعت الأرض وضاعت اللُّغة واستشهد الرجال ، تهجُّر مَن تهجَّر ، وبقيت الآثار الخالدة لا الأطلال البالية تذكرنا بـ « الفردوس المفقود » ، فمن بين الكثير نذكر آثار الزهراء ، وقرمونة ، وقصر الجعفرية ، وحى البيازين ، ومتحف وقصر الحمراء ، والقصبة بالمرية ، ورندة والجزيرة ، والقصبة الأندلسية ، ولبلة التى ما زالت محتفظة بأسوارها الأندلسية ، وحتى البرتغال بحصونه العاتية ، وشلب ، وباجة ، وظل جبل طارق ابن زياد شامخاً وشاهداً فى المضيق على مأساة عصره وعلى كل عصور الأندلس بما فيها من بؤر للضياع وقلاع للمجد . إنه الأندلس الذى سنطرح حوله فى النهاية استخلاصاً لهذا الحوار حول الماضى فى الحاضر ، ماضى نطالعه فى مختلف الثقافات والحضارات ، ونتلمسه ماثلاً كعبرة وعظة لنا فى النكسات والأزمات .

* * *